الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العولمة والترجمة.. تفاعل أم إقصاء؟

شاكر حسن راضي

يقدم الباحث والعالم اللغوي ديفد كريستل في كتابه " الانجليزية لغة العالم" فرضيتين تتعلقان بمستقبل الترجمة: الأولى أن اللغة الأنجليزية بصفتها اللغة العالمية الوحيدة للاتصال والتبادل ستؤدي الى الأستغناء عن خدمات الترجمة في سوق العمل. الفرضية الثانية تقول ان استعمال تقنية الترجمة الآلية ستقود الى جعل الترجمة البشرية وظيفة فائضة. (كريستل، ١٩٩٧). إلاّ أن الواقع يشير الى خلاف ذلك إذ يتزايد الطلب على الترجمة والخدمات اللغوية الأخرى مع تسارع النمو لظاهرة العولمة التي تجتاح كوكبنا. ويستند هذا القول الى التفاعل الواضح بين العولمة والترجمة والى التغيرات الكبيرة التي طرأت على مهنة وصناعة الترجمة بفعل التأثير الجارف للعولمة في مناحي الحياة كافة والتي ص في التغيرات الحاصلة في المناحي الآتية: ١- حركة السكان، ٢- التقدم التكنولوجي، ٣- التعاملات المالية، ٤- الإعلام والاتصالات، ٥- الصراعات الأيديولوجية

ومن خلال ذلك يلحظ المتابع هذ التفاعل بين العولمة والترجمة والعكس صحيح ذلك لأن الترجمة تسهم الى حد كبير في تطوّر الاقتصاد العالمي وتساعد في تطوير جودة الخدمات التي تقدم في مختلف قطاعات النشاط التجاري والاتصالات وتقنية المعلومات. وبسبب الطبيعة الأقتصادية والاجتماعية لهذه المهنة لابد من النظر اليها على أنها نشاط تجاري واجتماعي بالأضافة الى طبيعتها الثقافية واللغوية أصلا. بدأت ظاهرة العولمة التي اتسمت بالتوسع على المستوى العالمي للشركات المتعددة الجنسيات وانتشار مبدأ القضاء على القوانين التي تقيد حركة رأس المال في العديد من البلدان في أواخر ثمانينيات القرن الماضي ، بعد سقوط جدار برلين وانتهاء الحرب الباردة(مكفيل، ٢٠٠٠، دانينج، ٢٠٠٠). وبهذا الصدد يقول توماس فريدمان، الكاتب والصحفي الأمريكي المشهور، " تميز نظام الحرب الباردة بكلمة واحدة ألا وهي الجدار، فيما تميز نظام العولمة هو الآخر بكلمة واحدة وهي " الشبكة" ويقصد بها شبكة الإنترنت.(مقتبس في جريجوري، ٢٠٠٢،ص ٢١٠).لقد أدت ثورة تقنية المعلومات الى إقامة ما يمكن تسميته بخط سريع فائق لتنقل المعلومات وهذا بدوره أحدث ثورة في اقتصادات العالم ومجتمعاته وثقافاتة.

وينظر الى العولمة على أنها ظاهرة تسعى الى " جعل البلدان كافة لاعبين فاعلين والى أن تتطلع الشعوب التي وقعت في مصيدة الفقر الى مستويات أفضل من الرفاهية وتحسين مستويات معيشتها" (منظمة التعاون والتنمية الأقتصادية- ١٩٩٧) في حين يراها روبرتسون بأنها " عملية واعية بالعولمة أو مجموعة من السياسات التي تم تصميمها لإحداث تفاعلات على المستوى العالمي وليس على المستوى الدولي حسب".تعني كلمة عولمة حرفياً كما وردت في موسوعة وكيبيديا الألكترونية " عملية تحول الأشياء أو الظواهر المحلية أو الإقليمية الى ظواهر عالمية." ويمكن أن تستخدم الكلمة لوصف عملية يتم فيها دمج شعوب العالم وتنظيمها في مجتمع واحد يعمل معاً. ويعني ذلك عملية دمج للقوى السياسية والاقتصادية والتقنية والاجتماع -ثقافية. وغالباً ما تشير العولمة في جانبها الاقتصادي الى " دمج الاقتصادات الوطنية في الاقتصاد الدولي وذلك من خلال التجارة والاستثمارات الأجنبية المباشرة وتدفق رأس المال والهجرة ونقل التكنولوجيا وانتشارها" في حين ينظر اليها جي بالمر من معهد كاتوعلى أنها " إلغاء أو إضعاف للقيود التي تفرضها الدول على عمليات التبادل عبر الحدود ومن خلال النظام العالمي المتطور والمعقد للانتاج" (ويكيبيديا الألكترونية). لذلك تتفاعل هذة الظاهرة كما سبق القول مع مستويات النشاط الإنساني كافة بما في ذلك الترجمة. ففي أعقاب الموجة العارمة للعولمة برز جيل جديد من المترجمين ممن يؤدون ما يمكن وصفة بوظيفة " مسهّلي التبادل" على حد قول كرونين(٢٠٠٣، ص ٤٨) وفي ذات الوقت أسهمت العولمة في تشكيل صناعة مزدهرة في سوق الترجمة إذ تجاوزت قيمة إجمالي إيرادات الترجمة في عام ١٩٩٧ مثلاً أكثرمن ملياري دولار(لوكوود، ١٩٩٩، ص ١٩-٢٠).

الجانب الآخر من العولمة وعلاقتها بالترجمة هو الاطار التقني والحركة التي تطورت بها بسرعة عبر الحدود الدولية ويمكن ملاحظة ذلك من خلال توزيع أعمال الترجمة على شبكة الأنترنت عبر وسطاء افتراضيين. ومع سهولة الوصول الى خدمة الأنترنت، يستخدم المترجمون الآن البريد الألكتروني لتسلم وتسليم معظم الأعمال ويلجأ وسطاء الترجمة الافتراضيون الى شبكة هائلة لجمع المعلومات عن الطلب على الترجمة لعملائهم في أنحاء العالم كافة. وبفضل التقدم التقني صار بأمكان المترجم استعمال الأقراص المدمجة والقواميس والموسوعات الألكترونية ومكائن البحث الاخرى للعثور على المصطلحات الفنية والمعلومات الخاصة بالتقنيات الحديثة بدلاً من الذهاب الى المكتبات العامة والخاصة كما كان يفعل في الماضي. ولا يوفر هذا التقدم الوقت والجهد حسب بل يمنح المترجم فرصة للتركيز على عمله والوصول الى أحدث المعلومات خلال ثوان بدلا من الانتظار لسنوات من اجل الحصول على طبعات جديدة ومحدّثة من القواميس المتخصصة.ولم يغير الأنترنت الطريقة التي تنجز وتسلم وتعالج بها أعمال الترجمة حسب بل غيرت من طبيعة الترجمة نفسها.ففي الحقبة السابقة لعصر العولمة كان المترجمون يعملون موظفين بدوام كامل أو جزئي في الشركات والمؤسسات الحكومية والمنظمات الدولية ولكن وبعد شيوع الأنترنت بدأ الكثير من المترجمين المحترفين العمل لصالح أنفسهم من داخل منازلهم.وبفضل التوسع السريع للأعمال على شبكة الأنترنت أصبح المترجمون أكثر تطوراً وأقدر على الوصول الى أسواق أوسع عبر الأتصال الألكتروني وهو أمر لم يكن متخيلاً قبل حقبة الأنترنت وازدادت مدخولاتهم مقارنة بما كانوا يكسبون في الماضي (ولكنهم أضحوا أكثر تعرضا لضغوط مما كانوا عليه من قبل).ورغم أن التقدم التقني أعطى قوة دفع لتطور مهنة الترجمة الا أنه خلق بعض الاشكالات منها كما يوضح روبرت شافير بقوله" ليس صحيحاً أن العولمة تنتج رابحين دون خاسرين" فبسبب المنافسة الشديدة يضطر المترجم الى تخفيض رسوم الترجمة الى الحد الأدنى ما أدى الى بروز ما يعرف بظاهرة " إغراق الأسعار" اذا صح القول ذلك أم المترجمين في الدول النامية حيث تنخفض تكلفة العمل يميلون الى كسب المناقصات على شبكة الأنترنت بسبب تخفيضهم أجور الترجمة مقارنة بما يفرضه زملاؤهم في الدول المتقدمة.

يقول الباحث سبايبي " تعتبر التعاملات المالية المتكاملة لاقتصاد عالمي الهوية سمة من سمات الصفقات المالية التي تبرم على مدار الساعة في الأسواق والبورصات وأسواق العملات والسلع في أرجاء العالم بفضل استعمال شبكة الحاسوب الآلي في نظام الاتصالات العالمي" (١٩٩٦، ص١٠٢) ولكي تتمكن من التنافس في السوق العالمية يجب على الشركات المتعددة الجنسيات أن تقدم منتجاتها للمستهلكين حيثما كانوا وبأسرع ما يمكن ذلك أن الإطلاق الفوري لمنتج ما في أسواق مستهدفة يعد من العوامل الحرجة في نجاح الشركة على المستوى العالمي.ويعد الزمن المستغرق في التسويق عاملاً حيوياً في استراتيجيات الشركات العالمية. ولذلك، ونتيجة للتطور السريع في شبكة الأنترنت، تسعى الشركات كافة الى أن تكون أول من يسجل حضوراً في الفضاء الألكتروني للترويج لمنتجاتها وتوسيع رقعة أعمالها.ولكن المفارقة هنا تكمن في بطء عملية الترجمة التي ينفذها الانسان ما يجعل من الصعب إطلاق حملة ترويجية في ذات الوقت في كل أنحاء العالم. فضلاً عن ذلك فإن هذا البطء يجعل من غير الواقعي ترجمة محتويات موقع ألكتروني بالتزامن مع التحديثات المستمرة لمصدر المعلومات ما يخلق مشاكل لتلك المواقع التي تتخصص بالتسويق على الأنترنت.وعليه أصبحت هذة المشكلة " شوكة في خاصرة كل مشروع" كما يصفها توبنج(١٩٩٩، ص ٢١). ويمكن توضيح هذة الإشكالية بالرجوع الى الاحصاءات العلمية والتي تؤكد أن متوسط سرعة ما يمكن للمترجم إنجازه يتراوح ما بين ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ كلمة في يوم عمل من ٧ ساعات والذي يمكن ان يتضاعف أو ينزل الى النصف تبعاً لصعوبة النص الذي يشتغل علية المترجم.ولكن وبفضل التطور الهائل في تقنيات الاتصال صار بالإمكان توزيع مشاريع الترجمة الكبيرة على عدد من المترجمين المحترفين من خلال شبكة الأنترنت وبهذة الطريقة يمكن التغلب على بطء العملية من خلال تعهيد العمل لعدد من المترجمين في العالم لتلبية احتياجات الشركات الكبرى وخاصة تلك التي تعمل في صناعة برمجيات التجارة الألكترونية. الا ان مشكلة اختلاف المصطلحات والتعابير المحلية التي يلجأ اليها المترجمون تسهم هي الأخرى في ابطاء العمل ريثما يتم التوافق على تسميات مشتركة.

العنصر الرابع هو الاتصال والاعلام إذ توفر شبكة الأنترنت وتقنيات الاتصال الحديثة أدوات فاعلة جداً في نظام الاتصالات المعاصرة، ونتيجة لتأثير التطور السريع والمذهل في هذة التقنيات تغيرت بيئة الاتصال لتتحول الى نظام إعلامي عالمي يجمع ملايين الأشخاص ممن تفصل بينهم حواجز زمانية ومكانية.

في العالم المتقدم يطلع عدد كبير من الناس على ما يجري في العالم من التغطية الحية للأحداث من خلال الاذاعة والمحطات الفضائية وشبكة الأنترنت.اما في الدول النامية ربما يكون معدل حصول الناس على هذه الخدمات قد تحسن إلا ان هناك الملايين منهم وحتى في البلدان ذات الأقتصادات الناشئة مثل الصين والهند والبرازيل ما زالت تفتقر الى امكانية الدخول الى شبكة الأنترنت أو امتلاك اجهزة استقبال البث التلفزيوني الفضائي. مرة أخرى، تعزى هذة الإنجازات في التشابك الأعلامي وتوفير الخدمة الأخبارية الى فئات واسعة من المستمعين والمشاهدين ومستخدمي شبكة المعلومات الى جهود عدد كبير من المترجمين العاملين في المجال الأعلامي الجماهيري وخاصة في المنافذ الرئيسية لمزودي خدمات الأنترنت.

> نستنتج من الملاحظات التي أوردناها أن شبكة الاتصالات العالمية ومن خلال تطور ظاهرة العولمة الى تغيير القيم الثقافية التي توارثتها الشعوب وخلق مناخات جديدة من التفاعل والتلاقح الثقافي الذي ما كنا لنشهده في عالمنا المعاصر لولا ثورة الاتصالات والمعلومات التي مكنت سكان الكوكب من التواصل بسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية. وقدر تعلق الأمر بالترجمة، وفرت ثورة الاتصالات لها أجنحة ساعدتها في أداء دور غيّر الكثير من أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية بسرعة غير مسبوقة على الأطلاق.

أما الجانب الآخر من هذا التنوع الأتصالي فيكمن في أن العولمة قد تشكل تهديداً لعدد من اللغات التي تنطق بها الأقليات وللتنوع الثقافي في بعض المناطق الا انها وبلا شك ساعدت في تسهيل التبادلات الثقافية وفتحت أبواب المجتمعات التي ظلت منطوية على نفسها لعقود من الزمن أمام تلاقح أوسع بين الشعوب على الرغم من الصعوبات التقنية . ويمكن القول أن العولمة أسهمت على نحو ايجابي في تطوير التفاهم المشترك بين شعوب تنتمي الى لغات وثقافات مختلفة تماماً وذلك من خلال الترجمة وليس من خلال إلغاء اللغات الوطنية للشعوب أو اختراع لغة عالمية جديدة لتكون بمثابة البديل عن تلك اللغات. ومن الواضح أن العولمة الثقافية ليست طريقاً باتجاه واحد بل حركة باتجاهين على الرغم من أن المؤسسات الاحتكارية الثقافية والإعلامية مثل سي أن أن وأم تي في وسوني وغيرها هي الأكثر سطوة وقوة من التبادل الثقافي البسيط في بلدان غربية.ولكن، النفوذ الثقافي الكامن تحت السطح يغير وبصمت من نمط الحياة الغربية، وبهذا المعنى قد لا يكون تأثير العولمة على التنوع الثقافي بتلك الدرجة من السلبية التي يصفها بها بعض الباحثين.ويقف وراء هذه الرحلة في الحصول على المعلومات عن الثقافات الأجنبية جيش من المترجمين الذين يقومون بمعالجة معلومات لغوية وثقافية مختلفة وتحميلها على الفضاء الألكتروني. كل هذا أصبح ممكنا بفضل نظام الإتصال العالمي الذي يلعب فيه المترجمون دوراً مهماً في نشر الرسائل والصور التي تصل من مجتمعات اخرى في العالم. وبهذا المعنى تتفاعل الترجمة مع العولمة بطريقة ايجابية لا تقضي كما يرى البعض على الهوية الثقافية بل تعزز التنوع الثقافي وبذلك يكون المترجمون وسطاء للتبادل الثقافي و مروجين فاعلين لهذة العمليات. مع توسع تجارة الغرب وتوجهها نحو البلدان النامية توسعت العولمة الثقافية ممثلة بثقافة (الماك) وهي ثقافة عالمية شعبية نشرتها موسيقى البوب وتلفزيون أم تي في والمسلسلات والأفلام الأميريكية لتمتد الى بلدان تتمسك فيها المجتمعات المحلية بقيم ثقافية ودينية وتراثية مختلفة تماماً عن ثقافة البوب والمكدونالد.وبالأضافة الى ترجمة أشرطة الأغاني والأفلام على أشرطة الفيديو وأقراص الدي في دي، أدى (توطين) ألعاب الكومبيوتر ومنتجات أخرى ترتبط بالثقافات المحلية الى تعقيد مهمة وعمل المترجمين إذ يتشكل جيل من " مستهلكي الاعلام" بين المراهقين في كل أنحاء العالم وهؤلاء تجمعهم ملابس ولغة وسلوكيات " مشتركة" مقارنة بما كان سائداً في عصر أولياء امورهم وأقربائهم ومعلميهم كما يقول مكفيل (٢٠٠٢، ص ٤٠) .وفي التعامل مع ترجمة منتجات الثقافة الشعبية يواجه المترجمون تحديات جديدة تتمثل في ضرورة اتقان " لغة الأقران" في كل من لغة المصدر واللغة المستهدفة قبل البدء بترجمة النصوص المستخدمة في المنتجات المخصصة للشباب حيث توجد الكثير من المفردات الخاصة في اللغة المترجم منها واليها.

الصراعات الأيديولوجية

بغض النظر عن مشكلة استغلال العمال والأطفال في الدول النامية نتيجة لاستفحال ظاهرة العولمة وهيمنة عدد من الشركات العابرة للقارات على أسواق واقتصادات العالم وهي ظاهرة تلقى معارضة وانتقاداً من عدد كبير من منظمات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان، تعكس الصراعات الأيديولوجية في العالم الوجه السلبي لحركة العولمة.فهناك مقاومة عنيفة ومواقف معادية لتوسع وهيمنة ظاهرة العولمة على مقدرات شعوب العالم الثالث والدول النامية التي تحتفظ بآراء وقيم سياسية وأجتماعية وثقافية ودينية مختلفة عن ثقافة العولمة التي تجرف الحدود السياسية والثقافية للمجتمعات والدول وتحيلها الى قرية صغيرة تسقط فيها مفاهيم السيادة وقوانين الحماية .وتنشأ الصراعات الفكرية من خلال نشر وتنفيذ ايديولوجيات معينة ومقاومة ومعاداة هذة المحاولات. ففي بلدان فقيرة مثل أندونيسيا وتايلند وبنغلاديش يتعرض العمال والمزارعون لاستغلال الشركات العالمية التي تسرق جهودهم مقابل أثمان بخسة لمنتجاتهم التي لا يستطيعون تصديرها الى الأسواق العالمية بأنفسهم .وفي بلدان نامية أخرى تتعرض الاقتصادات والشركات الصغيرة والمتوسطة للتهديد بفعل زحف الشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات التي تمارس سياسات الإغراق والتقليد والغش التجاري وعمليات تبييض الأموال وغيرها من الممارسات التي لا تستطيع البلدان النامية مواجهتها سيما وانها لا تمتلك البنى التحتية المتطورة في قطاعات مهمة مثل الخدمات المصرفية والتجارة الألكترونية والمكننة الزراعية إضافة الى ما تواجهه هذه الدول من مشكلات الديون والأمراض الوبائية والأمية وضعف القدرات الإنتاجية وتدهور أنظمة التعليم ومشكلات بيئية ومناخية لا حصر لها. ورغم أن فريقاً من الباحثين يرىأن العولمة ستجعل من الدولة القومية شيئاً فائضاً أو أكثر ضعفاً مما كانت عليه عندما تكون الشركات المتعددة الجنسيات أكثر نفوذاً في صفقات الأعمال العالمية وعندما تكون المنظمات غير الحكومية أكثر فعالية في المشاركة بالشؤون الدولية(روجمن، ٢٠٠١،لاكنر وبولي، ٢٠٠٠).

ومهما يكن من الأمر، تبقى الاتصالات مع الدول الأجنبية المختلفة من خلال القنوات الرسمية هي المفتاح الرئيسي لفتح أبواب بلد أجنبي وهي الطريقة التي يتم بها المحافظة على علاقات دولية حسنة أو للتعامل مع المشكلات أو الأزمات. ولهذا السبب تلجأ الحكومات في الغالب الى الترجمة التحريرية والفورية لتنفيذ مهام التواصل مع ثقافات ولغات متنوعة، ذلك ان الحكومات تحتاج الى ارسال واستقبال الوفود لتعزيز العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والسياسية والتجارية وغيرها من النشاطات مع البلدان الأخرى.وفي ذات الوقت تعتمد المنظمات الإقليمية والدولية مثل الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة بمختلف وكالاتها والاتحاد الأفريقي وغيره على مترجميها العاملين لديها أو أولئك الذين يتم التعاقد معهم عبر متعهدين من القطاع الخاص لتنفيذ مهام الأتصال في الشؤون الدولية وحسم المنازعات والإغاثة وحفظ السلام وصياغة القرارات والمعاهدات وغيرها من المهام الحساسة. ورغم ان هذة الخدمات كانت موجودة منذ مئات السنين إلا ان حجم ومستوى الحاجة أصبح أكبر بكثير مما كان عليه بسبب الانفتاح وسهولة التواصل وتداخل المشاكل السياسية والقانونية والسكانية والبيئية مع بعضها بحيث صار من الصعب الركون الى لغة واحدة تكون وعاءً فكرياً موحداً لشعوب تنتمي الى خلفيات ثقافية ولغوية متباينة الى حد كبير جداً.وما الاتحاد الأوروبي الذي يضم في عضويته الان ٢٧ دولة الا دليل واضح وصريح على ما ذهبنا اليه.

وبهذا الصدد يشير الباحث هاموند (١٩٩٤) الى أن التغييرات في المشهد السياسي في العالم تؤثر في الطلب على الترجمة من والى لغات معينة مثل لغات جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق والدول الأعضاء الجدد في الأتحاد الأوروبي. ومع تحول أهدافها الستراتيجية تغيرت أولويات ادارات الأستخبارات في الدول الكبرى الفاعلة في الساحة الدولية واحتياجاتها الى خبراء لغويين وضباط استخبارات أو محللين أو موظفين يتقنون الترجمة من و الى لغات مختلفة .وكان لهذه الظاهرة أثر على العرض والطلب على مترجمي لغات معينة ما أدى الى احداث تغييرات اضافية في برامج التعليم في الدول المتقدمة التي غيرت أولوياتها من اللغات الأوربية الرئيسية مثل الألمانية والفرنسية والايطالية والروسية الى لغات أخرى سائدة في بلدان نامية مثل العربية خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ والصينية التي أصبحت لغة الدولة الأكثر نمواً في العالم. وعليه، يتضح أن دور المترجمين أصبح أكثر تأثيراً وانخراطاً في الصراعات العالمية شاءوا أم أبوا الا أن دورهم كوسطاء بين ثقافات مختلفة يبقى اكثر تأثيراً من مجرد كونه مبادرة رغم ان إسهاماتهم الإيجابية في تعزيز الحوار بين الأطراف المتحاربة أصبحت مشهودة.

ولكن عندما تتدخل الأيديولوجيا السياسية، يتبع المترجم التعليمات التي تصدر عن المؤسسة أو الزبون. وفي معظم الحالات بما في ذلك الصراعات الدولية،يتم استغلال المترجمين ليكونوا أدوات للاتصال أو مجرد منفذين وليس صناع قرارات.

وبكلمة أخرى يجد المترجم نفسه في وضع يضطر فيه الى أداء دور سلبي وغير فاعل من خلال عملية الترجمة إلا أن هذا الدور السلبي تقرره الى حد كبير عوامل اقتصادية وليس الأضطهاد السياسي " الذي شد وقيد أيدي" المترجمين.بأختصار، يوفر المترجمون الخدمة لمن يطلبها وفي معظم الأحوال لا يعيرون أهمية للأيديولوجيا إلا اذا رغبوا في الانخراط فيها وحتى في هذة الحالة يبقى دورهم هو خدمة " السيد" رغماً عن أرادتهم ، وعن طيب خاطر اذا ما أحبوا ايديولوجية "السيد".وان مهمة تغيير العالم أو تنفيذ مهمة ايديولوجية تبقى في يد السيد وليس في يد المترجم.

هذه هي الصورة الحقيقية للعلاقة بين المترجمين والمستفيدين من خدمة الترجمة قدر تعلق الأمر بالأيديولوجيا والصراعات الفكرية.

السياسي والثقافي واحدية السلطة.. ثنائية التوصيف

علي حسن الفواز

السياسة والثقافة مفهومان وإجراءان كثيرا ما يثيران الاسئلة الساخنة دائما، مثلما يثيران الريبة والالتباس عند اية محاولة للتعاطي مع ملفاتهما السرية والظاهرة، لان هذين المفهومين ارتبطا بانتاج ظواهر صراعية معقدة وعنيفة، مثلما انتجا اشكالات مفهومية انعكست على ظواهر صناعة ازمة الانسان امام السلطة والهيمنة والقوة مثلما انعكست ظواهر هذه الازمة على مفاهيم الهوية والحرية والتعدد. اذ ان تاريخ السياسة العربية هو تاريخ السلطة، وان تاريخ السلطة هو تاريخ المهيمنات، وهذا التاريخ ظل منتجا لازمات وصراعات اسهمت في توليد ثقافة العنف ورمزيته، فضلا عن دوغما ئيتها الدائمة في انسنة هذا العنف، لان العنف السلطوي هو عنف يقترن بالدفاع عن مركز موهوم، مركز السلطة، مركز التابو، مركز المقدس، وهذا بطبيعة الحال اسهم في تشكيل ملامح الشخصية العنفية، تلك الشخصية التي وجدت في البيئة الصراعية العربية مجالا واسعا لتشكلها، مثلما وجدت في البيئة الثقافية الصراعية فضاء لصيرورتها كأديولوجيا كثيرا ما تقترن بنصوص وافكار وتأويلات، ولعل طابع العنف الذي اتسمت بها الكثير من الشخصيات التي اقترنت بفرق معينة واتجاهات ارتبطت بما سمي في الأدبيات الإعلامية بـ (الإسلام السياسي) دليل على أن البيئة العربية،أي بيئة السلطة وازماتها وصراعاتها مع الثقافات السرية تعدّ من اكثر الحواضن استعدادا وتهييجا لصناعة العنف، وأحسب ان الحديث المتواتر عن الشخصية العراقية واتهامها بالعنف والانفعالية والمزاجية والقسوة والمازوخية احيانا اخر، يرتبط بتقديري بالكثير من سوء قراءة إشكالات التراكم الصراعي الظاهر والمستتر بين السلطة وما تمثله من ايديولوجيا فكرية وسلالية ونصوصية ازاء ثقافات عميقة في البنية الاجتماعية والدينية والسياسية العراقية، اذ تحولت هذه العلاقة الصراعية الى علاقة طاردة تمارسها السلطة لكل متون وهوامش الثقافات الاخرى وصولا الى تصعيد هذه العلاقة الى نوع من المحو والموت لكل المريدين الذين ينتمون الى الاشكال الثقافوية لهذه الاتجاهات.

إن العودة إلى قراءة تاريخ العلاقة الاشكالية المأزومة بين السلطة والمثقف يعطينا تصورا بأن هذه العلاقة لم تصطنع لها سياقات وأدواراً محددة ومعروفة ومحكومة، فهي علاقة هيمنة افتراضية تقوم على مجموعة من التعقيدات الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية التي تبرر أشكال الحاكمية والرعوية، تلك التي ترتبط بقصدية نظام الحماية، ونظام القوة، وهذه الثنائية صنعت لها بالمقابل شكلا من أشكال (الرأسمال) الاخلاقي والمعنوي الذي تراكم بفعل طبيعة الصراع الدائم وشروطه التي تحكم النظام الاجتماعي في البيئة العربية، والتي جعلت كل الأشكال الاجتماعية بما فيها الشكل الثقافي والشكل الديني/ الطقوسي والشكل الاقتصادي/التجاري تابعا لنظام الحكم المركزي الذي لايؤمن بالتعددية والحريات والطقوس خارج محيطه النفسي وتوصيفه البيئي..

ومن هنا نجد ان تاريخ السلطة العربية الذي اقترن بهذا النظام الاجتماعي الثقافي والاقتصادي، انتج نظاما آخر للعنف، ارتبط به تاريخ المثقف بمرجعياته كصعلوك وباطني ونقدي وعضوي، اذ ان هذا التاريخ الطويل من المطرودية والاقصاء والموت لايحمل معه أي شكل من اشكال التأسيس الاخلاقي لشخصية المثقف، لان هذا المثقف كان غير واضح الملامح، لايملك تراكما ثقافيا عميقا، وحتى الحديث عن شكل من اشكال الثقافات الباطنية التي تجوهرت حول ازمات صراعية معينة داخل تاريخنا العربي الاسلامي، لم تستطع هي الأخرى ان تؤسس عمقا لهذا التراكم، لانها ازمات ارتبطت بالسياسة والايديولوجيا وربما بفكرة السلطة وادوارها. ان هذه الازمات والصراعات اسهمت ومنذ اكثر من ألفي سنة في انتاج ازمات متوالية للمثقف،وهنا نقصد الشاعر والحكيم والمفسّر والراوي، مثلما اسهمت في تشكيل ازمات توصيفية للسلطة ذاتها، اذ ان هذه السلطة هي المسؤولة عن صناعة ظواهر القمع والاقصاء والسجن والمنفى السياسي وامتلاك رأس المال ورأس الحاكمية، وفرض شكل النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للدولة وعلاقات الافراد داخل هذه الدولة، والمثقف ظل بالمقابل هو الصانع الاثير للخطاب السري والتدوين السري، حامل الشفرات والتأويل والغموض ..

إن تحديد ملامح حقيقية لازمة السلطة والمثقف برزت بتقديري في العصور التي نشأت بها الدول المعاصرة، اذ ان هذه السلطة توسعت واصبح لها نظام معقد في الإدارة والحكم والايديولوجيا والسيطرة والاقتصاد والامن وتراكم الخبرات، مثلما تفككت فيها عقد النظام السلالي والمقدس والتابو واصبحت لها (صناعات) اكثر شراسة وقمعا لادارة السلطة ذاتها.كما ان توصيف المثقف حمل هو الآخر دلالة اكثر حضورا واكثر تعبيرا عن خصوصية هذا التوصيف، مثلما بدت استقلالية المثقف خارج(سستم) النظام الاجتماعي والاخلاقي والاقتصادي والقرابي واضحة، اذ ان هذا المثقف تأدلج وتمرد على المركزية التي كانت تمثلها السلطة القديمة، وتشخصن في وعيه ومواقفه واصبحت لها اطر ومرجعيات ايديولوجية بدأت تشكل خطرا حقيقيا على نظام السلطة، وأحسب ان هذه المعطيات في صناعة ظاهرة المثقف هي التي دفعت السلطة الى زيادة جرعات العنف ضد المناوئين لشرطها الوجودي ومنهم (المثقف) إيهاما بالدفاع عن نوعها ومركزها من خطورة هذه القوى الجديدة والغامضة..

فهل السياسي(نتاج السلطة) سيظل هو الصانع الوحيد للسيطرة والقوة دائما، وانه الرمز الفحولي الابوي الوحيد لهذه السلطة؟ وهل المثقف هو صانع الاوهام والاحلام والعاطل عن السلطة، أو هو نموذج المطرود القديم من اية حاضنة للرعوية؟ او ربما هو سارق النار الاسطورية والملاحق من قبل سلطة الالوهة الذكورية؟

هذه الاسئلة كثيرا ماتضعنا امام ضرورة البحث عن معادلات جديدة في إعادة إنتاج المثقف من فنطازيا وصفيته وايهاماته وخوفه ، مثلما هي محاولة في اعادة تعريف السلطوي ازاء تفاقم ازمته ووحدته الفحولية المفرطة، لاننا ندرك ان بقاء ثنائية الازمة تلك يعني انتاج المزيد من المصائب والمحن والحروب للناس والتخريب لقيم المدنية والحضارة، ونفيا متبادلا للثقافي والسلطوي، اذ ان تاريخ الازمات والصراعات والانقلابات الدموية في الدولة العراقية لايرتبط بطبيعة الشخصية العراقية ومزاجها العنيف او ازدواجيتها الاجتماعية والاخلاقية كما قد يصفها البعض من الانثربولوجيين، بقدر ما يرتبط اساسا بتاريخ الحكم الثيوقراطي والديكتاتوريات الايديولوجية والسياسية، تلك التي خلقت متنا اجتماعيا هشا، وعلاقات اجتماعية/سياسية قابلة للانزياح بسهولة، لان تاريخ الحكم السياسي كان تاريخا قامعا طاردا ارتبط بأديولوجيات غامضة استندت الى تأويل المقدس، وفرضت روطها وعنفها من خلال هذا المقدس، وان المعارضات الشعبية والعقائدية اتهمت بالمروق والتكفير والخروج عن الملة، لانها تبنت اتجاهات مناقضة للمقدس السلطوي، وهذا التراكم صنع له شكلا من اشكال المخيال الشعبي والانفعال النفسي الذي ظل يحكم الكثير من المواقف والتوجهات والممارسات الاجتماعية بما فيها استخدام وسائل العنف ايهاما بالدفاع عن(المقدس) الشعبي، وهذا ما يمنح القراءات المتعددة لازمات السلطة والثقافة، والسلطوي والمثقف طابعا يفترض البحث عن مرجعيات هذه الازمة، والبحث عن صياغات تسهم في اعادة قراءة هذه الازمة في ضوء معطيات الواقع الجديد الذي تقف فيه القوى السياسية امام لحظة (صناعة الدولة) باعتبار ان الدولة هي الفضاء الاداري والسياسي والتنظيمي الذي يعيد انتاج العلاقات الاجتماعية بين القوى الداخلة في صناعتها، واعادة قراءة تاريخ الازمة التي ترتبط اصلا بثنائيات الحاكم والمتبوع والراعي والرعية، وليس بأساس مفهوم المواطنة، الذي يكفل الحقوق والواجبات والعلاقات.

إن أول شروط التطهير والانقاذ من جنون هذه الازمات والصراعات، هو التخلص من الديكتاتوريات في كل شيء، وان نؤمن بتنظيم الحياة على اسس جديدة عادلة وعاقلة، يكون فيها السياسي هو المسؤول والاداري والمهني والموضوعي والعادل والخاضع الى القانون تنفيذاً لشروط مفهوم المواطنة. مثلما يكون فيها المثقف وأقصد هنا صانع الابداع المعرفي والجمالي والفكري والعلمي جزءا حيا من دورة الدولة وصناعتها وتنظيمها وبرامجها، يمارس دور المعلم والمربي والمنتج والمبدع والمراقب، واعتقد ان هذه الادوار هي صلب بناء مشروع بناء الدولة التي تضبط امورها وشجونها وعلاقاتها وسياقات عملها على اساس التشريعات و القوانين والمؤسسات وسيادة مفاهيم العدل والحق والواجب والانتماء والاختلاف حسب ما اتفق على إقراره في الدستور والقوانين..

ولاشك في ان الصعود الى هذه الدولة ووضع المثقف والسياسي في سياقات عمل فاعلة ضمن اطر بناء الدولة وبرامجها الستراتيجية والمهنية، ليست عملية سهلة وقابلة للتنفيذ السريع، اذ اننا ندرك وكما اسلفنا بان تاريخ انتاج الدولة في العراق كان تاريخ ازمات وعنف وحروب ومصائب طويلة، مثلما كان هذا التاريخ خاضعا لتجاذبات وصراعات عالمية واقليمية، وان العلاقة بين السياسي والمثقف كانت هي الاخرى خاضعة لنظام معقد من الرعوية ونظام الطاعة، حيث السياسي هو الحاكم والمثقف هو المحكوم، والسياسي هو المقدس والمثقف هو المدنس، فضلا عن ان هذا السياسي يحمل معه اجندة عائلية وسلالية يضعها في خانة الفحولة الدائمة، وان المثقف هو صانع الانوثة والتهريج، لايحق له الانتماء لهذه السلالة، وان أي شغب يثيره يعني انه ضد المقدس وبالتالي فانه يدخل في خانة التزندق والمروق والخروج عن الملة ..

إن هذا التاريخ المرعب يحتاج اليوم الى قراءة واعية، قراءة مسؤولة، تضع هذا التاريخ المأزوم في المتحف لكي تتعرف عليه الاجيال الجديدة وتعرف انه المسؤول عن كل مصائبنا وحروبنا ودمائنا وحقوقنا المهدورة، وان تسعى الدولة الجديدة الى تكريس قيم جديدة للحياة تملك شروط الوقاية من أمراض هذا التاريخ المرعب، تبدأ من شروط التعليم وبناء العقل المجتمعي والعقل الوطني ولا تنتهي عند تطبيق القانون على الجميع، فضلا عن ايجاد الصيغ والبرامج القابلة للتنفيذ بدءا من برامج التعليم الاساسي التي تعمد الى تعميم معارف السلام والحرية والجمال وبناء الشخصية الانسانية دونما خوف او دونما توحيش من نماذج التاريخ وربطها بما هو انساني، وانتهاء بإيجاد التشريعات الدستورية التي تكفل الحقوق العامة بما فيها حقوق الحريات والثقافات والآراء وتدريب الناس على حب الحرية والسلام والحق والجمال وتكرسيها والدفاع عنها، والتأكيد على خلق الفضاءات الدائمة على تنمية الوعي الاجتماعي والثقافي في المجالات كافة الذي يؤمن بالحضارة والمدنية والآخر، لان تاريخنا حافل للاسف بظواهر كثيرة للعنف والديكتاتورية، فضلا عن تشبعها بالكثير من البرامج المقطوعة التي تركت لنا طبعا وعيا منقطعا عن كل شروط الحضارة والمدنية ..

إن حاجتنا ضرورية ولازمة لإنتاج الجمالي في حياتنا ونتاج الحكومي الذي يؤمن بخدمة الناس واعتبارها ام الواجبات بعيدا عن سياق انتاج الحكومات الاستبدادية التي لاتؤمن بشراكة أحد ولا برقابة أحد، تلك التي جعلت السياسي هو صاحب الحاكمية دائما وان المثقف(